النقد الثقافي ادوارد سعيد م4

لقد مثّل كتاب "الاستشراق" للمفكر الفلسطيني العالمي الراحل إدوارد سعيد ثورة في الدّراسات الإنسانيّة، ليس في الغرب، حيث صدر فحسب، بل في العالم أجمع لما أحدثه من كشف فاضح للعمليّات الثقافيّة الاستعلائيّة التي كان يمارسها مفكّرو الغرب ومثقّفوه تجاه عالم الشرق وحضاراته منذ قرون عديدة، كما أنه "أحدث انقلاباً في قلب المفاهيم الألسُنية والبنيوية. وينصبّ هذا التثوير للمعرفة حتى الآن على رجّ الثقافة الغربية وكشف آلية السّلطة والقوّة والسيطرة على "الخارج.

ارتكز إدوارد سعيد على عدد من الأسس في قراءته لبنية الاستشراق:

-أولا :اركز على الاتساق والتماسك الداخلي للاستشراق وأفكاره عن الشرق، أو كما يقول : "ديزرائيللي الشرق كحقل معين من النشاط، الشرق كحرفة أو مهنة، بغض النظر، أو بعيدا عن أية توافقات مع الشرق الواقعي أو الفعلي .ولعل هذا الاتساق والتماسك الداخلي هو ما يؤكد وجود بنية مسبقة ومهيمنة عند المستشرقين، لتناول الشرق ووصفه وصناعته، بغض النظر عن التحولات الفعلية والتاريخية التي يتعرض لها الشرق. وهنا، فإن المستشرقين "يتناولون الشرق كبنية جوهرية غير قابلة للتبدل والتغيير، إلا بما يضفيه ويحدده ويسمح به هؤلاء المستشرقون؛ أي إن سعيد لا يحاول عبر دراسته أن يبين التناقض بين ما يقوله المستشرقون من جانب، وبين حالة المجتمعات الشرقية التي يمثلونها من جانب آخر، بقدر ما يهتم بفهم وتحليل خطاب الاستشراق ذاته، كبنية منغلقة، مكتفية ومسلحة بعناصر القوة الإمبريالية التي تستمد منها استمراريتها وبقاءها. لذا تأتي أهمية هذا الكتاب من أنه يقدّم دراسة لكافّة البُنى الثّقافيّة للشّرق من وجهة نظر غربي. وتستخدم كلمة "الاستشراق" أيضاً للتّدليل على تقليد أو تصوير جانب من الحضارات الشّرقية لدى الرواة والفنّانين في الغرب. المعنى الأخير هو معنى مهمول واستخدامه نادر، والاستخدام الأغلب هو دراسة الشّرق في العصر الاستعماري ما بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

-ثانيا :العلاقة بين الشرق والغرب يجب أن تدرس بوصفها علاقة قوة وهيمنة؛ فالشرق تمت شرقنته من قبل الغرب، حيث يذهب سعيد إلى أن الغرب هو الذي حدد وفصل ومايز بين بنيتين تم تعريفهما على أنهما شرق وغرب. ففي افتتاحية كتابه، يورد لنا سعيد جملة دالة لكارل ماركس، حيث يقول عن الشرقيين: "إنهم لا يستطيعون أن يمثلوا أنفسهم؛ إنهم يجب أن يُمثلوا .وتمثل هذه الجملة حالة عامة عبر صفحات كتاب سعيد، حيث يعتمد على العديد من الكتابات الاستشراقية منذ القرن الثامن عشر وحتى الآن، مثل: موسوعة وصف مصر وروايات فلوبير، وشاتوبريان، ولامارتين وجان جاك جوتييه، وكتابات اللورد كرومر، وبلفور وديلسبس، وكيسنجر، وإدوارد لين... إلخ من هذا الزخم الضخم الذي يستعين به إدوارد سعيد؛ لكي يبرهن على علاقة القوة والهيمنة بخطاب الاستشراق منذ

القرن الثامن عشر وحتى الآن، مطبقا ذلك بشكل رئيس على الأعمال المرتبطة بالاستشراق البريطاني والفرنسي، والأمريكي المعاصر لاحقا.

ويرى سعيد أن الاستشراق يمثل بنية سياسية وثقافية؛ فهو بنية سياسية من حيث إنه رغم اعتماده بالأساس على الجهود الفردية المتناثرة هنا وهناك، إلا أن هؤلاء الأفراد ذاتهم حينما يذهبون لدراسة المستعمرات الشرقية المختلفة المستعمرة والمحتلة من قبل بلدانهم، فإنهم في هذه الحالة لايذهبون بصفاتهم الفردية، قدر ما يحملون معهم هوياتهم الخاصة بهم؛ فالمستشرق الأمريكي، لا يذهب بصفته فردا أو باحثا في شؤون بلد ما، قدر ما يذهب وهو مستدمج لهويته الأمريكية، وبالمثل يمكن قول نفس الكلام عن باقي المستشرقين الأوروبيين. المعنى المستبطن هنا هو أن حامل الهوية هذا، غير محايد. ففي ظروف عادية غير مشحونة بالاستعلاء الاستعماري، كان من الممكن أن يحمل الفرد هويته الأمريكية أو الأوروبية، أو غيرها من الهويات بدون أن يثير ذلك هذه الألغام المرتبطة ببنية الاستشراق، لكن في ظل الهيمنة الإستعمارية، منذ نهاية القرن الثامن عشر، وحتى الآن، الأوروبية أولا، ثم الأمريكية لاحقا، فإن هذه الهويات المحمولة، تذهب إلى الشرق بصفتها السياسية، غير المعلنة أحيانا، والمعلنة في أحيان أخرى، وهي مرتدية أردية ثقافية مختلفة ومتعددة، لذلك، فإن سعيد يرى أن بنية الاستشراق هي حقيقة سياسية وثقافية في الوقت نفسه. من هنا، فإن سعيد يركز، في دراسته لبنية الاستشراق، على التبادل الدينامي بين المثقفين الأفراد والاهتمامات السياسية الأوسع التي تشكلت وفقا لمجال بحثه من خلال الإمبراطوريات الثلاث الكبيرة، البريطانية، والفرنسية، والأمريكية.

وعلى الرغم من تأكيد إدوارد سعيد الدائم على أهمية تاريخية الثقافة وموضعتها ضمن سياقات إجتماعية وإنسانية محددة، فإنه، وارتباطا مع نزعته الإنسانية، المضببة، لم يكن تاريخيا حقيقيا في تحليلاته، بقدر ما بدا لي بنيويا في تعاملاته مع النصوص الاستشراقية. فإدوارد سعيد الوافد على حقل الاستشراق، رغم رؤاه اللامعة، وتحليلاته المبهرة، استخدم التاريخ، في الغالب الأعم، بشكله الكرونولوجي، كمحطات وقوف تمنحنا بعض الفهم لقراءة وتحليل بنيوي نصي، أكثر منها تلك المحاولة التاريخية التي تضرب في عمق البنى الاجتماعية، بغية الوقوف على طبيعة القوى الاجتماعية المتصارعة، والقوى السياسية المهيمنة. لذلك، جاء تحليله لبنية الاستشراق، مؤديا كما يقول صادق جلال العظم إلى الاستشراق معكوسا.